

الفصل الثاني

معارك إسلامية من عهد الخلفاء الراشدين

(١)

القادسية ... طريق المسلمين إلى فتح فارس^(١)

نلتقي مع يوم من أيام الله تعالى يوم القادسية، هذا اليوم فرق الله به بين الحق والباطل؛ يوم القادسية يوم كيوم بدر، وكيوم خيبر، وكيوم اليرموك، إذا كانت هناك أياماً تغير من التاريخ، فيوم القادسية من هذه الأيام. فبعد موقعة القادسية اختلفت خريطة الأرض، وكان الجيش الإسلامي في القادسية يتضمن سبعين رجلاً أو أكثر من رجال بدر، وهذا أعطى للقادسية أهمية خاصة في التاريخ الإسلامي.

جاء في موسوعة وكبيديا الحرة الالكترونية: معركة القادسية هي معركة وقعت في ١٣ شعبان ١٥ هـ / ١٦-١٩ نوفمبر ٦٣٦ م - بين المسلمين بقيادة سعد بن أبي وقاص والفرس بقيادة رستم فرخزاد في القادسية، انتهت بانتصار المسلمين ومقتل رستم.

أسباب المعركة:

عام ١٤ هـ جمع يزيد جرد طاقاته ضد المسلمين، فبلغ ذلك المشني بن حارثة الشيباني فكتب إلى عمر بن الخطاب فأعلن النفي العام للمسلمين أن يدركوا المسلمين في العراق واجتمع الناس بالمدينة المنورة فخرج عمر معهم إلى مكان يبعد عن المدينة ثلاثة أميال على طريق العراق والناس لا يدرون ما يريد أن يصنع عمر الذي استشار الصحابة في قيادته للجيش بنفسه فقررُوا أن يبعث على رأس الجيش رجلاً من أصحاب الرسول ويقوم هو ولا يخرج، واستشارهم في من يقود الجيش، فأشار عليه بسعد بن أبي وقاص.

(١) جريدة الوسط الكويتية - معارك إسلامية خالدة - الحلقة " ١٩ " - عرض / ربيع سكر - ٣١ يوليو

٢٠١٣ ... نقلا عن موسوعة وكبيديا الحرة الالكترونية وموقع قصة الإسلام للدكتور راغب السرجاني

المسير إلى القادسية وتنظيم الجيوش:

استدعى عمر بن الخطاب سعد بن أبي وقاص وكان على صدقات هوازن فولاه الجيش وأمره بالسير في أربعة آلاف. ثم أمدّه بألفي يمني، وألفي نجديّ، وكان مع المثني بن حارثة الشيباني ثمانية آلاف. مات المثني قبل وصول سعد وتتابعت الإمدادات حتى صار مع سعد ستة وثلاثون ألفاً، منهم تسعة وتسعون بدريةً وثلاثمائة وبضعة عشر ممن كان له صحبة فيما بين بيعة الرضوان إلى ما فوق ذلك، وثلاثمائة ممن شهد الفتح وسبعائة من أبناء الصحابة. فنظم الجيش وجعل على الميمنة عبد الله بن المعتم وعلى الميسرة شرحبيل بن السمط الكندي وجعل خليفته إذا استشهد خالد بن عرفطة وجعل عاصم بن عمرو التميمي وسواد بن مالك على الطلائع وسلمان بن ربيعة الباهلي على المجردة وعلى الرجالة (المشاة) حمال بن مالك الأسدي وعلى الركبان عبد الله بن ذي السهمي وجعل داعيتهم سلمان الفارسي والكاظم زياد بن أبيه وعلى القضاء بينهم عبد الرحمن بن ربيعة الباهلي.

أما الفرس فقد أجبر يزجر درستم على قيادة الجيش الفارسي بنفسه وأرسل سعد بن أبي وقاص وفداً إلى رستم فيهم: النعمان بن مقرن المزني وحملة بن جوية الكناني ويسر بن أبي رهم والمغيرة بن شعبة والمغيرة بن زرارة.

وسار رستم وفي مقدمته الجالينوس، وجعل في ميمنته الهرمزان، وعلى الميسرة مهران بن بهرام، ثم سار رستم حتى وصل الحيرة ثم التجف حتى وصل القادسية ومعه سبعون فيلاً.

اليوم الأول وهو يوم أرماث:

عبر الفرس النهر في الصباح ونظموا جيشهم، ونظم سعد جيشه وحثهم على السمع والطاعة لئانته خالد بن عرفطة لأن سعداً أصابته دمامل في فخذه وإليته فكان ينام على وجهه وفي صدره وسادة، ويقود المعركة من فوق قصره، وصلى المسلمون الظهر وكبر سعد التكبير الأولى فاستعدوا، وكبر الثانية فلبسوا عدتهم، وكبر الثالثة فنشط الفرسان، وكبر الرابعة فزحف الجميع، وبدأ القتال والتلاحم. ولما رأت خيل المسلمين القبلة نفرت وركز الفرس بسبعة عشر فيلاً على قبيلة بجيلة فكادت تهلك، فأرسل سعد إلى بني أسد أن دافعوا عن بجيلة فأبلوا بلاء حسناً وردوا عنهم هجمة القبيلة، ولكن القبلة عادت

للفتك ببقيلة أسد، فنادى سعد عاصم بن عمرو التميمي ليصنع شيئاً بالفيلة، فأخذ رجالاً من قومه فقطعوا جبال التوايت التي توضع على الفيلة فارتفع عواؤها فما بقي لهم فيل إلا أعري وقتل أصحابه ونفس عن قبيلة أسد، واقتتل الفريقان حتى الغروب وأصيب من أسد تلك العشية خمسمائة كانوا رداء للناس، وهذا هو اليوم الأول من المعركة ويسمى يوم أرمات وهو الرابع عشر من المحرم.

اليوم الثاني وهو يوم أخوات:

وفي اليوم الثاني أصبح القوم فوكل سعد بالقتلى والجرحى من ينقلهم، وسلم الجرحى إلى النساء ليقمن عليهم، وفي أثناء ذلك طلعت تواضي الخيل قادمة من الشام يتقدمهم هاشم بن عتبة القرشي والقعقاع بن عمرو التميمي، وقسم القعقاع جيشه إلى أعشار وهم ألف فارس وانطلق أول عشرة ومعهم القعقاع فلما وصلوا تبعهم العشرة الثانية وهكذا حتى تكامل وصولهم في المساء، فألقى بذلك الرعب في قلوب الفرس، فقد ظنوا أن مائة ألف قد وصلوا من الشام فهبطت همهم، ونازل القعقاع بهم من جاذويه أول وصوله فقتله، ولم ير أهل فارس في هذا اليوم شيئاً يفرحهم، فقد أكثر المسلمون فيهم القتل، ولم يقاتل الفرس بالفيلة هذا اليوم، لأن توايتها قد تكسرت بالأمس فاشتغلوا هذا اليوم بإصلاحها، وألبس بعض المسلمين إبلهم فهي مجللة مبرقة وأمرهم القعقاع أن يحملوا على خيل الفرس يتشبهون بها بالفيلة ففعلوا بهم هذا اليوم وهو يوم أخوات كما فعلت فارس يوم أرمات فجعلت خيل الفرس تفر منها وقاتلت الفرس حتى انتصف النهار، فلما اعتدل النهار تراحفوا من جديد حتى انتصف الليل، فكانت ليلة أرمات تدعى الهدأة وليلة أخوات تدعى السواد.

اليوم الثالث وهو يوم عمواس:

أصبح القوم لليوم الثالث وبين الصفين من قتلى المسلمين ألفان ومن جريح وميت من الفرس عشرة آلاف، فنقل المسلمون قتلاهم إلى المقابر والجرحى إلى النساء، وأما قتلى الفرس فبين الصفين لم ينقلوا.

وبات القعقاع لا ينام فجعل يسرب أصحابه إلى المكان الذي فارقه فيه بالأمس وأوصاهم: «إذا طلعت الشمس فأقبلوا مائة مائة»، ففعلوا ذلك في الصباح فزاد ذلك في هبوط معنويات الفرس.

وابتدأ القتال في صباح اليوم الثالث وسمي يوم عمواس، والفرس قد أصلحوا توابعهم، فأقبلت الفيلة يحميها الرجالة فنفرت الخيل، ورأى سعد الفيلة عادت لفعلها يوم أرماث فقال لعاصم بن عمرو والقعقاع: «اكفياني الفيل الأبيض»، وقال لحمال والرييل: «اكفياني الفيل الأجر» فأخذ الأولان رحين وتقدما نحو الفيل الأبيض فوضعا رجليهما في عينيه، فنفض رأسه وطرح ساسته ودلى مشفره فضربه القعقاع فوق لجنبه، وهمل الآخران على الفيل الأجر قطعنه حمال في عينه فجلس ثم استوى وضربه الرييل فأبان مشفره فأقلت الأجر جريحا وولى وألقى نفسه في النهر واتبعته الفيلة وعدت حتى وصلت المدائن، ثم تراحف الجيشان فاجتلدوا وسميت هذه الليلة ليلة الهريز، وفي هذه الليلة حمل القعقاع وأخوه عاصم بن عمرو التميمي والجيش على الفرس بعد صلاة العشاء فكان القتال حتى الصباح، وانقطعت الأخبار عن سعد ورستم فلم ينم الناس تلك الليلة.

فلما جاءت الظهيرة كان أول من زال عن مكانه الفيرزان والهرمزان فانفرج القلب، وأرسل الله ريحا هوت بسرير رستم وعلاه الغبار ووصل القعقاع إلى السرير فلم يجد رستم الذي هرب واستظل تحت بغل فوجه حمله فضرب هلال بن علفة التيمي من بني الرباب الحمل الذي تحته رستم وهو لا يعرف بوجوده فهرب رستم إلى النهر فرمى نفسه ورآه هلال فتبعه وارتمى عليه فأخرجه من النهر ثم قتله، ثم صعد طرف السرير وقال: «قتلت رستم ورب الكعبة!! إلي إلي!!».

فانهارت حينئذ معنويات الفرس فانهزموا وعبروا النهر، فتبعهم المسلمون ينجزونهم برماحهم فسقط من الفرس في النهر ألوفا.

وقتل من المسلمين ليلة الهريز ويوم القادسية ثمانية آلاف وخمسمائة، ومن الفرس في الليلة نفسها أكثر من ثلاثين ألفا ولحق زهرة بن الحوية التميمي الجالينوس فقتله.

دروس وعبر من القادسية :

يقول المؤرخ الإسلامي راغب السرجاني: الدرس الكبير المستفاد من القادسية أن النصر يأتي نتيجة عاملين أساسيين هما: الإيمان بالله، والأخذ بالأسباب.

١- الإيمان بالله أساس النصر:

نجد أن تحركات الجيش الإسلامي منذ بداية خروجه من المدينة، حتى وصوله القادسية واشترائه في القتال تدل على أن الجيش الإسلامي كله يتمتع بإيمان قوي بالله؛ فيرسل عمر بن الخطاب برسالة إلى سعد بن أبي وقاص، يأمره بتقوى الله وتجنب المعاصي، ويقول له: إن أخوف ما يخاف على الجيش هو المعاصي، ويخاف عليه من المعاصي أكثر من خوفه عليهم من جيش فارس.

٢- الأخذ بالأسباب من عوامل النصر:

بدأ المسلمون التجهيز للمعركة في بدايات العام الخامس عشر الهجري، ووقعت الموقعة في شهر شعبان من العام نفسه، فاستغرق التجهيز للمعركة تسعة أشهر ونصف. وقد أعد سيدنا عمر بن الخطاب لهذه المعركة أكبر قوة للمسلمين، فلم يسمع ببطل من أبطال المسلمين في الجزيرة العربية إلا أحقه بهذا الجيش، وأمدَّ الجيش بالأسلحة والأموال والخيول والعتاد، وألحق بالجيش الأطباء والشعراء والخطباء، ومن لهم كلمة عند الناس.

حكمة القائد:

ونذكر حكمة سيدنا سعد بن أبي وقاص القائد في التعامل مع معصية الجندي للقائد.

وأول هذه المواقف: استكثار عمرو بن معديكرب تولى قيس بن هبيرة إمرته، فرأى سيدنا سعد بن أبي وقاص أن عمرو بن معديكرب ما زال بنفسه بعض آثار الجاهلية، وكان ردُّ سيدنا سعد على هذا الأمر بأن لأمه على فعلته، ثم أخرجه في جيش تحت إمرة سيدنا قيس بن هبيرة مرة أخرى كنوع من التربية.

الموقف الثاني: مخالفة سيدنا طليحة بن خويلد، ومحاربهته للفرس رغم ثبتي سيدنا سعد بن أبي وقاص له عن الاشتراك في قتال مع الفرس إلا بعد أن يأذن له، فما كان من سيدنا سعد بن أبي وقاص إلا أن لأمه على ذلك بشيء من الرِّقَّة؛ لأنه كان يعلم أن هذا الأمر يبغى به النصر للمسلمين ولم يكن فيه استكبار على رأي الأمير.

الموقف الثالث: وكان هذا الموقف في بداية المعركة فقد شغب أبو محجن الثقفي على سيدنا خالد بن عرفطة، وكان هذا الأمر شديداً جداً على المسلمين، فقد عصي- الأمير في

موقف القتال وأمام الفرس، فحبسه سيدنا سعد بن أبي وقاص في قصر قديس مع شدة حاجة المسلمين إليه.

الموقف الرابع: وكانت هذه المعصية من القعقاع بن عمرو التميمي لسيدنا سعد بن أبي وقاص في ليلة الهزيم في اليوم الثالث من أيام القادسية، وكانت معصيته تتمثل في حملته على الفرس بعد التكبير الأولى ولم ينتظر التكبير الثالثة، وقد فعل ذلك اجتهاداً منه، فقد غلب على ظنه هجوم الفرس على المسلمين، وأن في ذلك هلكة للمسلمين، فما كان منه إلا أن سارع بالمهجوم بفرقة على الفرس، فقال سيدنا سعد بن أبي وقاص: «اللهم اغفر له وانصره، قد أذنت له إذ لم يستأذني».

الحرب النفسية ضد الفرس:

لقد هُزِمَ الفرس هزيمة نفسية ساحقة كان لها أثر في هزيمتهم في المعركة، وتعددت عوامل هذه الهزيمة على الفرس، فمنها: دعوة رسل المسلمين للفرس إلى الإسلام؛ وكان هذا الأمر شديداً على نفوس الفرس. ومن أساليب الحرب النفسية التي اتخذها المسلمون في المعركة أنهم كانوا يبارزون بأشد المقاتلين ضراوة وبأساً مما فُتَّ في عَضِدِ الفرس؛ لما رأوا قتلهم صريحاً في بداية المعركة.

(٢)

اليرموك ... المعركة التي قلبت موازين القوى وغيرت خريطة التاريخ^(١)

معركة اليرموك ٥ رجب ١٣ هـ - ٢٠ سبتمبر ٦٣٤ م، إنها واحدة من أعظم معارك الإسلام وأقوى صدام بين الدولة الإسلامية والدولة الرومية أو البيزنطية النصرانية، والمعركة التي أنهت الوجود الروماني في أرض الشام الطاهرة، وغيرت موازين القوى في العالم القديم، وقد تجلت في هذه المعركة الكثير من الدروس والعبر والحقائق التي يجب على أهل الإسلام فهمها وتدبرها.

ويوم الجهاد يوم عظيم من أيام الله وكل أيام الجهاد أيام عظيمة وكل ساعات الجهاد ساعات عظيمة، ولكن الله يفضل أياماً على أيام ويفضل أمكنة على أمكنة، وهذا اليوم يوم اليرموك من أعظم الأيام في تاريخ الإسلام على الإطلاق، فإن الله شاء في ذلك اليوم أن يغير من خريطة التاريخ، حيث من الممكن أن يتصر المسلمون في موقعة والثانية والثالثة ولكن تأتي موقعة بعينها فتغير التاريخ وتغير معها معالم الدولة الإسلامية ومعلم الدولة الرومية أو الدولة الفارسية، وقد مرَّ المسلمون في فتح الشام بمعارك كثيرة منها: أجنادين ومنها موقعة بيسان وفتح دمشق وفتح بعلبك وحمص ومنها معركة مَرَج الصُّفَرِ الأولى والثانية والآن يصل المسلمون إلى موقعة فصل الخطاب وهي من المواقع التاريخية الكبيرة.

تبدأ أحداث المعركة عندما قرر الخليفة الراشد أبو بكر الصديق فتح بلاد الشام وأرسل إليها أربعة جيوش دفعة واحدة لفتح عدة جهات بالشام وحتى ينشغل الروم بكل جيش على حدة ولا يتجمعون للقاء المسلمين بقوتهم الضاربة، ولكن أدرك هرقل زعيم الروم خطة المسلمين وكان حكيمًا عاقلًا كاد أن يسلم عندما وصلتته رسالة النبي ﷺ ولكنه أثر سلطانه ومنصبه، فأعد مجموعة جيوش ضخمة، بحيث يكون كل جيش منها منفردًا

(١) جريدة الوسط الكويتية - معارك إسلامية خالدة - الحلقة " ٢٠ " - عرض / ربيع سكر - ١ اغسطس

٢٠١٣ ... نقلا عن موقع قصة الإسلام دراسة للدكتور راغب السرجاني

أضعاف الجيش المسلم الذي سيقابله، فعظم الخطب على المسلمين، إذ إن إجمالي الجيوش المسلمة الأربعة سبعة وعشرون ألفاً، في حين أن جيوش الرومان بلغت أربعين ومائتي ألف، فأشار عمرو بن العاص على قادة الجيوش الاجتماع تحت راية واحدة ثم طلب الإمدادات من الخليفة أبي بكر الصديق.

عندما وصلت الأخبار للخليفة الراشد قال كلمته الشهيرة: «والله لأشغلن النصارى عن وساوس الشيطان بخالد بن الوليد» وأرسل إليه وكان بالعراق وقتها يهد عرش الأكاسرة بحسامه البتار، وأمره بالانتقال بأقصى سرعة لنجدة المسلمين بالشام، فلبى القائد الفذ أوامر خليفته وأخذ معه نصف الجيش وتعداده تسعة آلاف، وقام بخطوة في غاية الجراءة والشجاعة حيث اخترق صحراء قاحلة محرقة لا يجسر أحد على اختراقها ليختصر المسافة الطويلة لأقل من نصف الوقت وهو يتف قاتلاً: «لا بد أن أخرج من وراء جموع الروم فلا تحبسوني عن نصره وغيث المسلمين» ووصل البطل بجيشه الخفيف في خمسة أيام، وفي الطريق فتح عدة مدن كانت خاضعة للروم مثل «تدمر» و«بهاء» و«قراق» و«بصرى» فاستبشر المسلمون بذلك.

تكامل جمع المسلمين بوادي نهر اليرموك ستة وثلاثين ألفاً، واجتمع خالد مع باقي قادة الجيش ولاحظ أمراً في غاية الخطورة يؤدي حتماً للهزيمة، ألا وهو أن المسلمين منقسمون على أنفسهم وسوف يقتتلون الروم متساندين، ومعنى كلمة متساندين أي أن كل جيش سيكون تحت طاعة وإمرة قائده فقط، أي أن المسلمين سيكون لهم خمسة قواد في القيادة العامة وهذا عين الخذلان والفرقة، فرعظهم خالد بن الوليد وحذرهم من خطورة ذلك، وأن الخليفة لا يرضاه أبداً، فاقتنع باقي القادة بفكرة خالد وهي أن يكون لكل يوم من أيام المعركة قائد واحد أي يتبادلون الإمارة فيما بينهم.

أصبح خالد بن الوليد القائد العام للجيوش الإسلامية، فعمل على تنظيمها على شكل كراديس [كتائب] لتبدو للنظر كثيفة، وجعل على رأس كل كراديس بطلاً من الأبطال المشهورين، وأعطى النساء في مؤخرة الجيش سيوفاً يضررن بها الفارين من أرض القتال، وجعل أبا سفيان واعظ الجيش والمقداد بن الأسود قارئ سور الجهاد والشهادة، وحملت النفوس واشتدت العزائم، وحاول القائد العام للرومان «ماهان» عرض أموال طائلة على المسلمين ليرجعوا عن القتال، ولكن خالد رفض هذا العرض الدنيوي الرخيص لأن

المسلمين ما خرجوا للدنيا، بل لله وللإسلام ونشر الدعوة.

وفي يوم ٥ رجب سنة ١٣ هـ اندلعت أعظم معارك الإسلام على أرض الشام بين الحق والباطل ودارت رحى حرب لم يذق أو يخضع الرومان مثلها، فقد كان القتال يوم اليرموك على أشده وثبت كل من المسلمين والرومان يومها ثباتًا عظيمًا، حتى صار القتال مثل الرحا، فلم يُرَ يومها إلا مخ ساقط، وكف نادر، ورأس طائر، وتصافح المسلمون والرومان بسيوفهم، وظل خالد يضرب بسيفه من طلوع الشمس لغروبها وصلّى الناس إياه.

مشاهد رائعة في أرض المعركة:

ووقعت عدة مشاهد رائعة هائلة في أرض المعركة منها:

- ١- مشهد أول من استشهد من المسلمين، والرسالة التي حمّله إياها أبو عبيدة بن الجراح إلى الرسول ﷺ.
 - ٢- مشهد مبايعة عكرمة بن أبي جهل وأربعمائة من سادة المسلمين الله عز وجل على القتال حتى الشهادة.
 - ٣- مشهد كتيبة خالد التي تجاوز عددها مائة مقاتل، والتي ردت هجوم خمسين ألفًا من الرومان.
 - ٤- قتال نساء المسلمين وبطلتهم الجسورة «أسياء بنت يزيد الأنصارية» التي قتلت تسعًا من الروم بعمود خيمتها.
 - ٥- فطنة خالد في التعامل من الرسالة التي جاءت من المدينة بوفاة الصديق واستخلاف الفاروق وعزل خالد من القيادة العامة، حيث كتمها حتى لا يفث ذلك في عضد المجاهدين.
 - ٦- الحوار العجيب الذي دار بين خالد بن الوليد و«جورج بن تيودور» الذي تسميه المراجع العربية «جرجة» والذي انتهى بإسلام جورج وانضمامه لجيش المسلمين ضد إخوانه الرومان ثم استشهاده في القتال، وهذا من أعجب المشاهد.
- وعلى الرغم من ضخامة الجيوش الرومانية واستعدادها للقتال لفترة طويلة، إلا إن

الصحابة أطفئوا نارهم وقضوا على قوتهم وطحنوهم في يوم واحد فقط، ولم تكد شمس اليوم تغرب حتى كان نصر الله قد نزل على المسلمين وهزم الروم هزيمة مدوية كسرت عمودهم الفقري ببلاد الشام، وتساقطت بعدها المدن والحصون الشامية.

الجدير بالذكر أن هناك خلط في تاريخ هذه المعركة، فالبعض يجعلها سنة ١٥ هـ بدلاً من ١٣ هـ استناداً على المراجع البيزنطية التي أرخت للمعركة، ووضع على أساس ذلك سير مخالف للفتوحات الشامية جعل فيها معركة اليرموك خاتمة المعارك بالشام، ولكننا أثبتنا ما ذكره المؤرخون المسلمون الأوائل مثل خليفة بن خياط والطبري وابن الأثير وابن كثير وغيرهم. فليتبته لذلك .

الإستراتيجية العسكرية لخالد بن الوليد:

يقول المؤرخ الإسلامي الدكتور راغب السرجاني: وللأسف الشديد لم نقدر نحن سيدنا خالد قدره، فلم نقم حتى بتدريس هذه النظريات العسكرية الإسلامية المبتكرة في مدارسنا، أو كليتنا العسكرية !!

ولستوقف لنقرأ تحليل أحد المحللين العسكريين الألمان المعاصرين (كلوس فيتز) في القرن التاسع عشر، الذي كان أقوى محلل عسكري في ذلك الوقت، ويذكر في كتابه (في الحرب): إن أروع لحظات الدفاع هي لحظة الانتقال السريع والقوي إلى الهجوم كضربة ثار بسيف بتار، والطرف الذي لا يفكر في هذه اللحظة منذ البداية، ولا يدخلها عند نشوب العمليات في مفهوم دفاعه، لا يمكن أن يفهم أبداً تفوق الدفاع.

- يرى أن الدفاع خير وسيلة للهجوم، فيظل الجيش في الدفاع، حتى يستهلك العدو قوته، ثم يبدأ الهجوم، وهذه أروع لحظات المعركة، وفيها تُشَلُّ قوة العدو.

وقد وضعها في القرن ١٩ الميلادي، ثم جاء محلل آخر يدعى (ليدل هاد) يسمونه: نبي الإستراتيجية العسكرية في القرن العشرين؛ فتقضى نظرية الألماني في جزء منها، فقال:

-إن الهدف من المعركة هو أحداث صدمة تترك تفكير العدو، بتوجيه ضربة له في مكان لا يتوقعه، وأحداث خسارة مادية تؤثر على نفسية العدو.

وبذلك فهو يرى أن الأجدى ليس الدفاع، وإنما توجيه ضربة للعدو لا يتوقعها، تحدث

خسارة مادية، تكون نتيجةها انهيار معنويات العدو). □ ثم يقول: وحاول أن تخلق الفوضى في صفوف عدوك، إذا كنت تنوي ضربه الضربة الساحقة، ويؤيد (كلاوس فيتز) في جزئية أخرى، تخصص ما نحن بصدد الحديث عنه هنا، فيقول: إذا كان عدد الجنود في معسكرك يقل عن عدد الجنود في معسكر العدو (كموقف المسلمين في موقعة اليرموك) فحاول مؤقتاً أن تعطيه فرصة للهجوم على معسكرك، ولا تهجم عليه.

وأكبر الظن أنك ستواجه ناحية ضعيفة في معسكر العدو، لتفاجئه أنت بالهجوم، عندئذٍ استجمع كل قوتك، واعزم على النصر، وسيكون النصر حليفك.

ولو نظرنا لحظة خالد بن الوليد، ثم قارناها بما يقوله خبراء العسكرية بعده بقرون، لوجدنا خالدًا في الجزء الأول من المعركة في اليرموك كان عازمًا على الأخذ بخطة «كلاوس فيتز» الأولى، وهي أنه يدافع حتى تنهك قوى الجيش الرومي، ثم يقتحم بعد ذلك، ويهجم عليهم، وفي الجزء الثاني من المعركة، أراد أن يفاجئ جيش الروم بضربة تحدث خسارة مادية واضحة، وتؤثر على نفسيتهم، ومعنوياتهم.

وبذلك استعمل خالد النظريتين معاً في هذه المعركة، قبل خبراء العسكرية بنحو ١٣ قرنًا، وهاتان النظريتان يدرسان في الكليات العسكرية الآن، ولا يشار بأي كلمة إلى أن هناك قائدًا مسلمًا طبق هذه النظريات في موقعة واحدة، هو سيف الله المسلول وأرضاه.

وللأسف الشديد لم نقدر نحن سيدنا خالد قدره، فلم نقم حتى بتدريس هذه النظريات العسكرية الإسلامية المبتكرة في مدارسنا، أو كلياتنا العسكرية!!

مشاهد من اليرموك:

جاء في موسوعة ويكيبيديا الحرة الالكترونية العالمية: دامت المعركة ستة أيام، كان المسلمون فيها يردون هجمات الروم في كل يوم، حيث كان خالد بن الوليد يستخدم «سرية الخيالة المتحركة السريعة» التي يقودها بنفسه ليتحرك بسرعة خاطفة من مكان إلى آخر حيث يكون جيش المسلمين في تراجع تحت ضغط الروم، ويعود كل من الجانبين في نهاية النهار إلى صفوفه الأولية قبل القتال أو إلى معسكراته.

وجرى الأمر كذلك خلال الأربعة أيام الأولى كانت فيها خسائر الروم بالأعداد أكبر

من خسائر جيش المسلمين، وفي اليوم الخامس لم يحدث الشيء الكثير بعد رفض خالد «هدنة ثلاثة أيام» التي عرضها الروم بقوله المشهور لرسول الروم «نحن مستعجلون لإنهاء عملنا هذا»

وفي اليوم السادس تحولت إستراتيجية خالد من الدفاع إلى الهجوم، وتمكن بعبقريته الفذة من شن الهجوم المجازف على الروم واستخدام الأسلوب العسكري الفريد من نوعه آنذاك وهو الاستفادة الصحيحة من إمكانيات «سرية الفرسان سريعة التنقل» ليحول الهزيمة المشوكة للمسلمين إلى نصر مؤزر لهم.

وقاتلت نساء المسلمين من خلف الجيوش (في معسكرات المسلمين الخلفية) في هذه المعركة، وقتلن عددًا كبيرًا من الروم وقتلت خولة بنت الأزور على سبيل المثال، وكن يضرين من انهزم من المسلمين بالحجارة ويزجرنهم، وفق تعليقات خالد عند قدومه وتنظيمه لجيش المسلمين، ويصرخن قائلات: «أين تذهبون وتدعوننا للعلاج»، وعندئذ يرجع المنهزمون، وقد تكرر ذلك في كل يوم من أيام المعركة، حتى قيل أن بعض المقاتلين عندما كانوا يهيمون بالفرار إلى الخلف كانوا يقولون «مواجهة الروم ولا مواجهة نساتنا» ويعدها يكر المسلمون لشن الهجوم العاكس.

بعد المعركة:

كانت معركة اليرموك من أعظم المعارك الإسلامية، وأبعدها أثرًا في حركة الفتح الإسلامي، فقد لقي جيش الروم (أقوى جيوش العالم يومئذ) هزيمة قاسية، وفقد زهرة جنده، وقد أدرك هرقل الذي كان في حمص حجم الكارثة التي حلت به وبدولته، فغادر سوريا نهائيًا وقلبه ينفطر حزنا، وقد ترتب على هذا النصر العظيم أن استقر المسلمون في بلاد الشام، واستكملوا فتح مدنه جميعا، ثم واصلوا مسيرة الفتح إلى الشمال الإفريقي.

(٣)

ذات الصواري.. أول معركة بحرية في الإسلام^(١)

لم يكن للمسلمين عهد بركوب البحر أو الحرب في أساطيله، لكنهم وجدوا من خلال فتوح بلاد الشام أن الأسطول البيزنطي مصدر تهديد خطير ومباشر لأنهم وأمن المناطق المفتوحة واستقرار الإسلام فيها، فأدركوا أن بناء أسطول إسلامي ضرورة إستراتيجية حيوية، وأول من اقترح بناء أسطول بحري إسلامي كان معاوية بن أبي سفيان والي بلاد الشام على الخليفة عمر بن الخطاب، ولكن لم يتم بناء أسطول عسكري إسلامي إلا في عهد الخليفة عثمان بن عفان، فكانت نواة هذا الأسطول من السفن التي وجدوها في موانئ الشام ومصر، ثم انطلقوا إلى صناعة السفن في دور الصناعة، وهكذا دخل السلاح البحري في الإستراتيجية العسكرية الإسلامية لأول مرة في تاريخ المسلمين، وبدأ هذا السلاح الناشئ بسرعة مذهلة في ممارسة العمليات البحرية التي تستهدف غزو جزر البحر الأبيض ذات الأهمية الإستراتيجية في تأمين الشام ومصر. وعمليات القتال البحري ضد أسطول بيزنطة مثل معركة ذات الصواري موضوع هذا البحث.

وكان من الطبيعي ألا تقتف بيزنطة مكتوفة الأيدي أمام تلك القوة البحرية التي قامت في البحر الأبيض المتوسط، وأصبح تحت يدها أغلى ما كانت تملك من دور للصناعة وقواعد بحرية في عكا والإسكندرية، مما يشكل تهديدًا خطيرًا لسيادتها التي امتدت زمنًا بلا منافس. فقد أصيب الروم بضربة حاسمة في إفريقية، وتعرضت سواحلهم للخطر بعد سيطرة الأسطول الإسلامي على سواحل المتوسط من ردوس حتى برقة، فجمع قسطنطين بن هرقل أسطولاً بناه الروم من قبل، فخرج بألف سفينة لضرب المسلمين ضربة يثار لها خسارته المتوالية في البر، فأذن عثمان رضي الله عنه لصد العدوان، فأرسل معاوية مراكب الشام بقيادة بسر بن أرطأة، واجتمع مع عبد الله بن سعد بن أبي السرح في

(١) كتاب: تيسير الكريم المنان في سيرة عثمان بن عفان رضي الله عنه، ج١ / ٢٠٤-٢٠٩. تأليف: علي محمد محمد الصلابي وانظر جريدة الوسط الكويتية - معارك إسلامية خالدة - الحلقة " ٢١ " - عرض / ربيع سكر - ٢ اغسطس ٢٠١٣، وراجع موسوعة ويكيبيديا الحرة الإلكترونية العالمية .

مراكب مصر، وكانت كلها تحت أمرته، ومجموعها مائتا سفينة فقط، وسار هذا الجيش الإسلامي وفيه أشجع المجاهدين المسلمين ممن أبلوا في المعارك السابقة؛ فقد انتصر هؤلاء على الروم من قبل في معارك عديدة، فشوكة عدوهم في أنفسهم محطمة، لا يخشونه ولا يهابونه، على الرغم من قلة عدد سفنهم إذا قيست بعدد سفن عدوهم وخرج المسلمون إلى البحر وفي أذهانهم وقلوبهم إعزاز دين الله وكسر شوكة الروم.

أسباب معركة ذات الصواري:

ولقد كان لهذه المعركة التاريخية أسباب، منها:

- ١ - الضربات القوية التي وجهها المسلمون إلى الروم في إفريقية.
 - ٢ - أصيب الروم في سواحلهم الشرقية والجنوبية بعد أن سيطر المسلمون بأسطولهم عليها.
 - ٣ - خشية الروم من أن يقوى أسطول المسلمين فيفكروا في غزو القسطنطينية.
 - ٤ - أراد قسطنطين بن هرقل استرداد هبة ملكه بعد الحسائر المتتالية براء، وعلى شواطئه في بلاد الشام ومصر وساحل بركة.
 - ٥ - كما أراد الروم خوض معركة ظنوا أنها مضمونة النتائج، كي تبقى لهم السيطرة في المتوسط، فيحافظوا على جزره، فينطلقوا منها للإغارة على شواطئ بلاد العرب.
 - ٦ - محاولة استرجاع الإسكندرية بسبب مكائنها عند الروم، وقد ثبت تاريخياً مكائنها سكانها لقسطنطين بن هرقل ملك الروم.
- أين وقعت هذه معركة ذات الصواري؟

وهذا السؤال لم يجد المؤرخون له جواباً موحداً؛ فالراجع العربية لم تحدد مكانها، باستثناء مرجع واحد على ما نعلم صرح بالمكان بدقة، وآخر قال اتجه الروم إليه.

المصادر والمراجع الإسلامية:

- في "فتح مصر وأخبارها" ذكر الكتاب خطبة عبد الله بن سعد بن أبي السرح وقال: قد بلغني أن هرقل قد أقبل إليكم في ألف مركب. ولم يحدد مكان المعركة.

- "الطبري" في أخبار سنة ٣١هـ، ربط حدوث ذات الصواري بما أصاب المسلمون من الروم في إفريقية، وقال: فخرجوا في جمع لم يجتمع للروم مثله قط.
- ولم يذكر "الكامل في التاريخ" مكان الموقعة أيضا، ولكنه ربط سبب وقوعها بما أحرزه المسلمون من نصر في إفريقية بالذات.
- وفي "البداية والنهاية": فلما أصاب عبد الله بن سعد بن أبي السرح من أصاب من الفرنج والبربر بلاد إفريقية، حمت الروم واجتمعت على قسطنطين بن هرقل، وساروا إلى المسلمين في جمع لهم لم ير مثله منذ كان الإسلام؛ خرجوا في خمسمائة مركب وقصدوا عبد الله بن سعد بن أبي السرح في أصحابه من المسلمين ببلاد المغرب.
- "تاريخ الأمم الإسلامية": لم يذكر مكان الموقعة أيضا.
- ورجح الدكتور شوقي أبو خليل أن المعركة كانت على شواطئ الإسكندرية، وذلك للأسباب التالية:
- كتاب "النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة" يذكر صراحة: غزوة ذات الصواري في البحر من ناحية الإسكندرية.
- تاريخ ابن خلدون يذكر: ثم بعث ابن أبي السرح سرايا ودوخ البلاد فأطاعوا وعاد إلى مصر، ولما أصاب ابن أبي السرح إفريقية ما أصاب، ورجع إلى مصر خرج قسطنطين بن هرقل غازيا إلى الإسكندرية في ستمائة مركب.
- ربطت المراجع العربية التي لم تحدد موقع المعركة بين حدوث المعركة وبين ما خسره الروم في شمال إفريقية بالذات.
- الأسطول الرومي صاحب ماض عريق، فهو سيد المتوسط قبل ذات الصواري، فهو أجراً على مهاجمة السواحل الإسلامية، ولذلك رجح الدكتور شوقي أبو خليل مجيء الأسطول الرومي إلى شواطئ الإسكندرية لاستعادتها بسبب مكانتها عند الروم، ومكاتب أهلها للملكهم السابق، وهو بذلك يقضي أيضا على الأسطول الفتى في مهده، الذي شرع العرب في بنائه بمصر، فبقى للروم السيطرة والسطوة في مياه المتوسط وجزره.

المراجع الأجنبية:

- المراجع الأجنبية تعرف ذات الصواري بموقعة فونيكَة، وفونيكَة هو ثغر يقع غرب مدينة الإسكندرية، بالقرب من مدينة مرسى مطروح، فهي تحدد الموقع تماما.

أحداث معركة ذات الصواري:

قال مالك بن أوس بن الحدثان: كنت معهم في ذات الصواري، فالتقينا في البحر، فنظرنا إلى مراكب ما رأينا مثلاً قط، وكانت الريح علينا -أي لصالح مراكب الروم- فأرسلنا ساعة، وأرسلوا قريبا منا، وسكتت الريح عنا، قلنا للروم: الأمن بيننا وبينكم، قالوا: ذلك لكم، ولنا منكم. كما طلب المسلمون من الروم: إن أحببتم نزل إلى الساحل فنقتل حتى يكتب لأحدنا النصر، وإن شئتم فالبحر. قال مالك بن أوس: فنخروا نخرة واحدة، وقالوا: بل الماء الماء، وهذا يظهر لنا ثقة الروم بخبرتهم البحرية، وأملهم في النصر لممارستهم أحواله وفنونه، مرتوا عليه فأحكموا الدراية بثقافته وأنوائه فطمعوا بالنصر فيه، خصوصا أنهم يعلمون حداثة عهد المسلمين به.

بات الفريقان تلك الليلة في عرض البحر، وموقف المسلمين حرج، فقال القائد المسلم لصاحبه: أشيروا عليّ؟ فقالوا: انتظر الليلة بنا لترتب أمرنا ونختبر عدونا، فبات المسلمون يصلون ويدعون الله -عز وجل- ويذكرونه ويتعجبون، فكان لهم دوي كدوي النحل على نغمات تلاطم الأمواج بالمراكب، أما الروم فباتوا يضربون النواقيس في سفنهم، وأصبح القوم، وأراد قسطنطين أن يسرع في القتال، ولكن عبد الله بن سعد بن أبي السرح لما فرغ من صلاته أماما بالمسلمين للصبح، استشار رجال الرأي والمشورة عنده، فاتفق معهم على خطة رائعة: فقد اتفقوا على أن يجعلوا المعركة برية على الرغم من أنهم في عرض البحر، فكيف تم للمسلمين ذلك؟ أمر عبد الله جنده أن يقتربوا من سفن أعدائهم فاقتربوا حتى لامست سفنهم سفن العدو، فنزل الفدائيون أو رجال الضفادع البشرية في عرفنا الحالي إلى الماء، وربطوا السفن الإسلامية بسفن الروم، وربطوها بحبال متينة، فصار ١٢٠٠ سفينة في عرض البحر، كل عشرة أو عشرين منها متصلة مع بعضها، فكانها قطعة أرض ستجري عليها المعركة، وصف عبد الله بن سعد المسلمين على نواحي السفن يعظهم ويأمرهم بتلاوة القرآن الكريم، خصوصا سورة الأنفال؛ لما فيها من معاني الوحدة والثبات والصبر.

وبدأ الروم القتال، فهم في رأيهم قد ضمنوا النصر عندما قالوا: بل الماء الماء، وانقضوا على سفن المسلمين بدافع الأمل بالنصر، مستهدفين توجيه ضربية أولى حاسمة يحطمون بها شوكة الأسطول الإسلامي، فنقض الروم صفوف المسلمين المحاذية لسفنهم، وصار القتال كيفما اتفق، وكان قاسيا على الطرفين، وسالت الدماء غزيرة اصطبغت بها صفحة الماء، فصار أحر، وترامت الجثث في الماء، وتساقطت فيه، وضربت الأمواج السفن حتى ألجأتها إلى الساحل، وقتل من المسلمين الكثير، وقتل من الروم ما لا يحصى، حتى وصف المؤرخ البيزنطي "ثيوفانس" هذه المعركة بأنها كانت يرموكا ثانيا على الروم. ووصفها الطبري بقوله: إن الدم كان غالبا في الماء في هذه المعركة، حاول الروم أن يغرقوا سفينة القائد المسلم عبد الله بن أبي السرح، كي يبقى جند المسلمين دون قائد، فتقدمت من سفينته سفينة رومية، ألقت إلى عبد الله السلاسل لتسحبها وتنفرد بها، ولكن علقمة بن يزيد الغطيفي أنقذ السفينة والقائد بأن ألقي بنفسه على السلاسل وقطعها بسيفه.

وصمد المسلمون رغم كل شيء، وصبروا كعادتهم في معاركهم، فكتب الله - عز وجل - لهم النصر بما صبروا، واندحر ما تبقى من الأسطول الرومي، وكاد الأمير قسطنطين أن يقع أسيرا في أيدي المسلمين - كما ذكر ابن عبد الحكم - لكنه تمكن من الفرار لما رأى قواه تنهار وجثث جنده على سطح الماء تلقى بها الأمواج إلى الساحل. لقد رأى أسطوله الذي تأمل فيه خيرا ونصرا وإعادة كرامة يغرق قطعة بعد قطعة، ففر مدبرا والجراحات في جسمه، والحسرة تآكل فؤاده، يجر خيبة وفشلا، فوصل جزيرة صقلية، وألقت به الريح هناك، فسأله أهله عن أمره فأخبرهم، فقالوا: شمت النصرانية، وأقنيت رجالها، لو دخل المسلمون لم نجد من يردهم فقتلوه، وخلوا من كان معه من المراكب.

نتائج معركة ذات الصواري:

١ - كانت ذات الصواري أول معركة حاسمة في البحر خاضها المسلمون، أظهر فيها الأسطول الفتى الصبر والإيمان، والجَلْدَ والفكر السليم بما تفتق عنه الذهن الإسلامي من خطة جعلت المعركة صعبة على أعدائهم، فاستحال عليهم اختراق صفوف المسلمين بسهولة، كما استخدم المسلمون خطاطيف طويلة يجرون بها صواري وشرع سفن الأعداء، الأمر الذي انتهى بكارثة بالنسبة للروم.

٢ - كانت ذات الصواري حذا فاصلا في سياسة الروم إزاء المسلمين، فأدركوا فشل خططهم في استرداد هيبتهم، أو استرجاع مصر أو الشام، وانطلق المسلمون في عرض هذا البحر الذي كان بحيرة رومية، وانتهى اسم بحر الروم إلى الأبد، واستطاع المسلمون فتح قبرص وكريت وكورسيكا وسردينيا وصقلية وجزر البليار، ووصلوا إلى جنوة ومرسيليا.

٣ - قتل قسطنطين فتولى ابن قسطنطين الرابع من بعده، وكان حَدَثًا صغير السن، مما جعل الظروف مواتية لقيام حملة بحرية وبرية إسلامية تستهدف عاصمة روما "القسطنطينية" فيما بعد.

٤ - الإعداد الروحي قبل المعركة - أو ما يسمى بالتوجيه المعنوي في أيامنا هذه - له قيمته في تحقيق النصر؛ حيث تتجه القلوب إلى الله بصدق، فهذا المؤمن الذي بات ليله في تهجد وذكر، يستمد العون من الله، من عظمته وعزته، بعد أن هيا الأسباب، يلقي الأعداء بروح عالية لا يهاب الموت، فالله أكبر من كل شيء، وهذه المعارك التي نصف أحداثها التاريخية هي وصفة طيبة نعرضها للتطبيق والنهج، لنستفيد منها في حياتنا؛ فحياة الصحابة مآهي إلا للمقدوة وسيرة للاتباع.

٥ - أصبح البحر المتوسط بحيرة إسلامية، وصار الأسطول الإسلامي سيد مياه البحر المتوسط، وهذا الأسطول ليس للتسلط والقرصنة بل للدعوة إلى الله وكسر شوكة المشركين، ونشر الحضارة المنبثقة عن كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

٦ - عكف المسلمون على دراسة علوم البحرية، وصناعة السفن، وكيفية تسليحها، وأسلوب القتال من فوقها، وعلوم الفلك المتصلة بتسييرها في البحار، ومعرفة مواقعهم على المصورات البحرية المختلفة، فيما بعد، فعرفوا الاصطربلاب "البوصلة الفلكية"، وطوروها إلى المدى الذي استفاد منه بعد ذلك البحارة الغربيون أمثال: كرسطوف كولومبس، وأمريكوفيسبوشي في اكتشافاتهم.

٧ - لقد كانت هذه المعركة مظهرا من مظاهر تفوق العقيدة الصحيحة الصلبة على الخبرة العسكرية والتفوق في العدد والعُدَد، فلقد كان الروم هم أهل البحر منذ القدم، وقد مروا بتجارب طويلة في الحروب البحرية، بينما كان المسلمون حديثي عهد بركوب البحر

والقتال البحري، ولكن الله تعالى أحط المسلمين عليهم برغم التفوق المذكور؛ لأنه سبحانه قد سخر أولئك المؤمنين لنشر دينه وإعلاء كلمته في الأرض. وإن مما يشاد به في هذه المعركة قوة قائدها عبد الله بن سعد بن أبي السرح ورباطة جأشه، ومقدرته الجيدة على إدارة الحروب، وهي بعد ذلك لون من ألوان بسالة المسلمين واستمقالتهم في الحروب بأنفسهم في سبيل إعزاز دينهم ورفع شأن دولتهم.

سبب التسمية:

جاء في موسوعة ويكيبيديا الحرة الالكترونية العالمية: بعض المؤرخين يرجع سبب تسمية المعركة بذات الصواري إلى كثرة عدد صواري السفن التي اشتركت فيها من الجانبين؛ وبعضهم الآخر يذكر أن هذا الاسم نسبة إلى المكان الذي دارت قريباً منه، وهو ما نميل إليه وما يستتج مما يلي:

قول الطبري: "فركب من مركب وحده ما معه إلا القبط حتى بلغوا ذات الصواري، فلقوا جموع الروم في خمسمائة مركب أو ستمائة". وقوله أيضاً: "وأقام عبد الله بذات الصواري أياماً بعد هزيمة القوم".

قول ابن الأثير: (وأقام عبد الله بن سعد بذات الصواري بعد الهزيمة أياماً ورجع).

ويضاف إلى ذلك أن المكان الذي دارت المعركة قريباً منه اشتهر بكثرة الأشجار التي تستخدم أخشابها في صناعة صواري السفن، وقد أشار إلى ذلك أرشيالد لويس بقوله: (وما يلفت للنظر أن المكان الذي دارت فيه هذه المعركة، وهو ساحل الأناضول، يزدحم بغابات السرو الكثيفة وهو الشجر المستخدم في صواري السفن).

الآثار الإستراتيجية لذات الصواري:

أهم آثار معركة ذات الصواري تلخص في نقطتين رئيسيتين:

١- انتصار المسلمين على عدو متفوق في العدد والعتاد ويعود ذلك لعدة أسباب أهمها قوة الإيمان والعقيدة والإدارة السليمة والاستثمار الأمثل للقدرات.

٢- انتهاء عصر السيادة البيزنطية في البحر المتوسط.